﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ [١] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

نزلت هذه الآية فى جماعة من المؤمنين صادقى الإيمان [٢] ، إلا أنهم لم يشهدوا بدراً ولا أُحُداً ، ولكنهم عاهدوا الله إنْ جاءت معركة أخرى لَيُبَادِرُنَّ إليها ، ويبلُون فيها بلاءً حسناً .

وورد أنها نزلت فى أنس بن النضر ، فقد عاهد الله لما فاتته بدر لو جاءت مع المشركين حرب أخرى لَيبلونَّ فيها بلاء حسناً ، وفعلاً لما جاءت أُحُد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى استشهد فيها ، فوجدوا فى جسده نيِّفاً وثمانين طعنةً برمح ، وضربة بسيف [٣] ، وهذا معنى

---

(١) نحب : أوجب على نفسه أمراً . أو نذر نذراً . وقضى نحبه : وفَّى بنذره . والنحب النذر ويقال لمن مات في سبيل الله : قضى نحبه . أى : وفَّى بنذره لأنه نذر أن يموت فى سبيل الله . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

(٢) قال على بن أبى طالب عن طلحة بن عبيد الله : ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى ﴿ فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب] : طلحة ممن قضى نحبه ، لا حساب عليه فيما يستقبل . وقال عيسى بن طلحة : أن النبى ﷺ مرَّ عليه طلحة فقال : هذا ممن قضى نحبه . أوردهما الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول ص ٢٠٢ ، ٢٠٣) .

(٣) عن أنس بن مالك قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فشق عليه ، وقال : غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، والله لئن أشهدنى الله سبحانه قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع . فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال : أى سعد ، والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أُحُد . فقاتلهم حتى قُتل . قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم . وقد مثَّلوا به ، وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه ، ونزلت هذه الآية . [أسباب النزول للواحدى ص ٢٠٢ ، وابن سعد فى الطبقات الكبير (٤/٣٢٩)]

﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب]

وساعة تسمع كلمة ﴿رِجَالٌ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] في القرآن ، فاعلم أن المقام مقام جدٍّ وثبات على الحق ، وفخر بعزائم صُلْبة لا تلين ، وقلوب رسخ فيها الإيمان رسوخ الجبال . وهؤلاء الرجال وَفَّوا العهد الذى قطعوه أمام الله على أنفسهم ، بأنْ يبلُوا فى سبيل نصرة الإسلام ، ولو يصل الأمر إلى الشهادة .

وقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] قضى نحبه : أى أدَّى العهد ومات ، والنحب فى الأصل هو النذر ، فالمراد : أدى ما نذره ، أو ما عاهد الله عليه من القتال ، ثم استُعملَت (النحب) بمعنى الموت .

لكن ، ما العلاقة بين النذر والموت ؟ قالوا : المعنى إذا نذرتَ فاجعل الحياةَ ثمناً للوفاء بهذا النذر ، وجاء هذا التعبير ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣)﴾ [الأحزاب] لتعلم أن الموت يجب أن يكون منك نذراً . أى : انذر لله أنْ تموت ، لكن فى نُصْرة الحق وفى سبيل الله ، فكأن المؤمن هو الذى ينذر نفسه وروحه لله ، وكأن الموت عنده مطلوب ليكون فى سبيل الله .

فالمؤمن حين يستصحب مسألة الموت ويستقرئها يرى أن جميع الخَلْق يموتون من لدُن آدم عليه السلام حتى الآن ؛ لذلك تهون عليه حياته ما دامت فى سبيل الله ، فينذرها ويقدمها لله عن رضا ، ولِمَ لا وقد ضحيتَ بحياة ، مصيرها إلى زوال ، واشتريتَ بها حياة باقية خالدة مُنعَّمة .

وقد ورد فى الأثر : « ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » ومع أننا نرى الموت لا يُبقى على أحد فينا إلا أن كل

إنسان فى نفسه يتصور أنه لن يموت .

وحَقٌّ للمؤمن أنْ ينذر نفسه ، وأنْ يضحى بها فى سبيل الله ؛ لأن الله يقول : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)** ﴾ [آل عمران]

وهذه الحياة التى عند الله حياة على الحقيقة ، لأن الرزق سمة الحىّ الذى يعيش ويأكل ويشرب .. إلخ ، وإياك أنْ تظن أنها حياة معنوية فحسب .

وقد تسمع مَنْ يقول لك : هذا يعنى أننى لو فتحتُ القبر على أحد الشهداء أجده حياً فى قبره ؟ ونقول لمن يحب أنْ يجادل فى هذه المسألة : الله تعالى قال : ﴿ **أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩)** ﴾ [آل عمران] ولم يقل : أحياء عندك ، فلا تحكم على هذه الحياة بقانونك أنت ، لا تنقل قانون الدنيا إلى قانون الآخرة .

والمؤمن ينبغى أن يكون اعتقاده فى الموت ، كما قال بعض العارفين : الموت سهم أُرسِل إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره إليك .

والقرآن حين يعالج هذه المسألة يقول تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)** ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور الحياة ، إنما نستقبلها مع نقيضها حتى لا نغترَّ بها .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣)** ﴾ [الأحزاب] أى : ينتظر الوفاء بعهده مع الله ، وكأن الله تعالى يقول : الخير فيكم يا أمة محمد

باقٍ إلى يوم القيامة ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)﴾ [الأحزاب] معنى التبديل هنا : أي ما تخاذلوا في شيء عاهدوا الله عليه ونذروه ، فما جاءت بعد ذلك حرب ، وتخاذل أحد منهم عنها ، ولا أُدخل أحد منهم الحرب مواربة ورياء ، فقاتل من بعيد ، أو تراجع خوفاً من الموت ، بل كانوا في المعمعة حتى الشهادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾

تأمل هنا رحمة الخالق بالخَلْق ، هذه الرحمة التي ما حُرِم منها حتى المنافق ، فقال سبحانه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ.. (٢٤)﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تحدثنا عن صفتي المغفرة والرحمة وقلنا : غفور رحيم من صيغ المبالغة ، الدالة على كثرة المغفرة وكثرة الرحمة ، وأن القرآن كثيراً ما يقرن بينهما ، فالمغفرة أولاً لتستر العيب والنقائص ، ثم يتلوها الرحمة من الله ، بأن تمتد يده سبحانه بالإحسان .

وقد أوضحنا ذلك باللص تجده في بيتك ، فتشفق عليه ، ثم تمتد إليه يدك بالمساعدة التي تعينه على عدم تكرار ذلك . وقلنا : إن الغالب أن تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقليلاً ما تسبق الرحمةُ المغفرةَ .

وقلنا : إنه يشترط في المغفرة أن تكون من الأعلى للأدنى ، فإذا

ستر العبد على سيده قبحاً لا يقال : غفر له ، وكذلك في الرحمة فإن مال الأقل بالإحسان إلى الأعلى لا يقال رحمة ؛ لأنه قد يعطيه عوَضاً عما قدَّم له أو يعطيه انتظار أنْ يرد إليه ما أعطاه مرة أخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

الغيظ : احتدام حقد القلب على مقابل منافس ، والمعنى : أن الله تعالى ردَّ الكافرين والغيظ يملأ قلوبهم ؛ لأنهم جاءوا وانصرفوا دون أنْ ينالوا من المسلمين شيئاً ﴿ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب] ليس الخير المطلق ، إنما لم ينالوا الخير في نظرهم ، وما يبتغونه من النصر على المسلمين ، فهو خير لهم وإنْ كان شراً يُراد بالإسلام .

وقد رد الله الكافرين إلى غير رَجْعة ، ولن يفكروا بعدها في الهجوم على الإسلام ؛ لذلك قال سيدنا رسول الله بعد انصرافهم خائبين : « لا يغزونا أبداً ، بل نغزوهم نحن »[1] وفعلاً كان بعدها فتح مكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب] أي :

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٦٢) من حديث سليمان بن صرد . قال العسقلاني في (فتح الباري ٧/٤٠٥) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال » .

أن ردَّ الكافرين لم يكُنْ بسبب قوتكم وقتالكم ، إنما تولَّى الله ردَّهم وكفاكم القتال ، صحيح كانت هناك مناوشات لم تصل إلى حجم المعركة ، ولو حدثت معركة بالفعل لكانت فى غير صالح المؤمنين ؛ لأنهم كانوا ثلاثة آلاف ، فى حين كان المشركون عشرة آلاف .

إذن : كانت رحمة الله بالمؤمنين هى السبب الأساسى فى النصر ؛ لذلك ذُيلت الآية بقوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** (٢٥) ﴾ [الأحزاب] قوياً ينصركم دون قتال منكم ، وعزيزاً : أى يغلب ولا يُغلب .

هذا ما كان من أمر قريش وحلفائها ، أما بنو قريظة فيقول الله فيهم :

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾

معنى ﴿ **ظَاهَرُوهُم** .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أى : عاونوهم ﴿ **مِن صَيَاصِيهِمْ** .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أى : من حصونهم وقلاعهم ﴿ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أى : الخوف وهو جندى من جنود الله ، وهذا الرعب الذى ألقاه الله فى قلوب الكافرين هو الذى فرَّقهم ، ولم يجعل لكثرة العدد لديهم قيمة ، وما فائدة أعداد كثيرة خائفة مذعورة ﴿ **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** .. (٤) ﴾ [المنافقون]

ألم يُحدِّثنا صحابة رسول الله أنهم كانوا يستعملون السواك ، فظن الكفار أنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلوهم ، هذا هو الرعب الذى نصر الله به عباده المؤمنين .

ومعنى ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أى : المقاتلين الذين يحملون السلاح ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾ [الأحزاب] وهم النساء والذرارى وغيرهم ممَّنْ لا يحملون السلاح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾

معنى ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] أى : أعطاكم أرضَ وديار وأموالَ أعدائكم من بعد زوالهم وانهزامهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] أى : أماكن جديدة لم تذهبوا إليها بعد ، والمراد بها خيبر ، وكأن الله يقول لهم : انتظروا فسوف تأخذون منهم الكثير ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا انتهى التعبير القرآنى من قصة الأحزاب[1] .

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] قال : « هم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان ، وراسلوه ، ونكثوا العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ ، فبينما النبى ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه ، إذ أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : عفا الله عنك . ما وضعت الملائكة عليها السلام سلاحها منذ أربعين ليلة ، فانهض إلى بنى قريظة فإنى قد قطعت أوتادهم ، وفتحت أبوابهم ، وتركتهم فى زلزال وبلبال .

فأرسل رسول الله ﷺ فحاصرهم ، وناداهم : يا إخوة القردة فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت فحاشا . فنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف ، فرجوا أن تأخذه فيهم مودة ، فأوما إليهم أبو لبابة ، فأنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (٢٧) ﴾ [الأنفال] فحكم فيهم سعد : أن تُقتل مقاتلتهم ، وأن تسبى ذراريهم ، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فقال الأنصار : آثر المهاجرين بالأعقار علينا ، فقال سعد : إنكم كنتم ذوى أعقار ، وأن المهاجرين كانوا لا أعقار لهم . فذكر لنا أن رسول الله ﷺ كبَّر وقال : مضى فيكم بحكم الله » . [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٥٩١] .

وينبغى علينا الآن أنْ نستعرض القصة بفلسفة أحداثها ، وأن نتحدث عمَّا فى هذه القصة من بطولات ، ففيها بطولات متعددة ، لكل بطل فيها دور .

وتبدأ القصة حين ذهب كل من حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وكانا من قريظة ، ذهبا إلى قريش فى أماكنها ، وقالوا : جئناكم لنتعاون معكم على إبطال دعوة محمد ، فأتُوا أنتم من أسفل ، وننزل نحن من أعلى ، ونحيط محمداً ومن معه ونقضى عليهم .

وكان فى قريش بعض التعقُّل فقالوا لحيى بن أخطب وصاحبه : أنتم أهل كتاب ، وأعلم بأمر الأديان فقولوا لنا : أديننا الذى نحن عليه خير أم دين محمد ؟ فقال : بل أنتم أصحاب الحق[1] .

سمعتْ قريش هذا الكلام بما لديها من أهواء ، وكما يقال : آفة الرأى الهوى ؛ لذلك لم يناقشوه فى هذه القضية ، بل نسجوا على منواله ، ولم يذكروا ما كان من أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ ، وأنهم كانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ويقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبى جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْلَ عاد

---

(١) قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء] وعن عكرمة قال : جاء حُيى بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء (الناقة العظيمة السنام) ، ونسقى الماء على اللبن ، ونفك العانى (الأسير) ، ونسقى الحجيج ، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً . [تفسير ابن كثير ١/٥١٣] .

وإرم[1] ، لقد فات قريشاً أنْ تراجع حيي بن أخطب ، وأن تسأله لماذا غيَّرتم رأيكم في محمد ؟

ثم جاء القرآن بعد ذلك ، وفضح هؤلاء وهؤلاء ، فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فكانت هذه أول مسألة تغيب فيها العقول ، ويفسد فيها الرأي ، فتنتهز قريش أول فرصة حين تجد مَنْ يناصرها ضد محمد ودعوته ، ومن هنا اجتمع أهل الباطل من قريش وأحلافها من بني فزارة ، ومن بني مرة ، ومن غطفان وبني أسد والأشجعيين وغيرهم ، اجتمعوا جميعاً للقضاء على الدين الوليد .

ثم كانت أولى بطولات هذه المعركة ، لرجل ليس من العرب ، بل من فارس عبدة النار والعياذ بالله ، وكأن الحق سبحانه يُعد لنصرة الحق حتى من جهة الباطل ، إنه الصحابي الجليل سلمان الفارسي[2] ،

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٨٩) ﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب . وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) .

(٢) سلمان الفارسي ، صحابي من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، رحل إلى الشام ، فالموصل ، فنصيبين ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وعلم بخبر الإسلام فقصد النبي فسمع كلامه ، ولم يدخل الإسلام إلا بعد أن تحرر من العبودية . كان ينسج الصوف ويأكل خبز الشعير من كسب يده . توفي ٣٦ هـ [الأعلام للزركلي ٣/١١٢] .

الذى قضى حياته جَوَّالاً يبحث عن الحقيقة ، إلى أنْ ساقتْه الأقدار إلى المدينة ، وصادف بعثة رسول الله وآمن به .

وكان سلمان أول بطل فى هذه المعركة ، حين أشار على رسول الله بحفر الخندق ، وقال : يا رسول الله كنا - يعنى فى فارس - إذا حَزَبنا أمرُ القتال خندقنا يعنى : جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً ، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من المهاجرين ومن الأنصار ، فأراد كل منهم أن يأخذ سلمان فى صَفِّه ، فلما تنازعا عليه ، قال سيدنا رسول الله لهم « بل سلمان منا آل البيت »[1] وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان رضى الله عنه .

وهذه الفكرة دليل على أن الحق سبحانه يُجنِّد حتى الباطل لخدمة الحق ، فنحن لم يسبق لنا أنْ رأينا خندقاً ولا أهل الفارسى الذين جاءوا بهذه الفكرة ، لكن ساقها الله لنا ، وجعلها جُنْداً من جنوده على يد هذا الصحابى الجليل ، لنعلم كما قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وقد أوضحنا هذا المعنى فى قصة فرعون الذى كان يذبح الأطفال

---

(١) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

بعد النبوءة التى سمعها ، ثم يأتيه طفل على غير العادة يحمله إليه الماء ، وهو فى صندوقه ، ولا يخفى على أحد أنَّ أهله قصدوا بذلك إبعاده عن خطر فرعون ، ومع ذلك حال الله بين فرعون وبين ما فى قلبه ، فأخذ الولدَ وربَّاه فى بيته .

وقد أحسن الشاعر الذى عبَّر عن هذا المعنى ، فقال :

إذاَ لَمْ تُصَادفْ فِى بَنِيكَ عِنَايَةٌ ... فَقَد كَذَبَ الراجى وَخَابَ المُؤَمِّلُ
فَمُوسىَ الذِى ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... ومُوسىَ الذى ربَّاهُ فرعَوْنُ مُرْسَلُ

البطل الثانى فى هذه المعركة رجل يُدْعَى نعيم بن مسعود الأشجعى[(١)] ، جاء لرسول الله يقول : يا رسول الله لقد مال قلبى للإسلام ، ولا أحد يعلم ذلك من قومى ، فقال له رسول الله : « وما تغنى أنت ؟ ولكن خذِّل عنا »[(٢)] أى : ادفع عنا القوم بأىِّ طريقة ، أبعدهم عنّا ، أو ضلِّلهم عن طريقنا ، أو قُلْ لهم أننا كثير ليرهبونا .. إلخ .

---

(١) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعى ، أبو سلمة . صحابى مشهور ، أسلم ليالى الخندق ، وهو الذى أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان فى وقعة الخندق ، فخالف بعضهم بعضا ورحلوا عن المدينة . قُتل نعيم فى أول خلافة على قبل قدومه البصرة فى وقعة الجمل ، وقيل : مات فى خلافة عثمان ، والله أعلم . [الإصابة فى تمييز الصحابة ترجمة رقم ٨٧٨٠] .

(٢) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٤٧/٣) أن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمُرْنى بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

هذا رجل كان بالأمس كافراً ، فماذا فعل الإيمان في قلبه ، وهو حديث عهد به ؟ نظر نُعَيْم ، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل ، وبني قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى ، فأراد أنْ يدخل بالدسيسة بينهما ، فذهب لأبي سفيان ، وقال : يا أبا سفيان ، أنا صديقكم ، وأنتم تعلمون مفارقتي لدين محمد ، ولكني سمعت هَمْساً أن بني قريظة تداركوا أمرهم مع محمد ، وقالوا : إن قريشاً وأحلافهم ليسوا مقيمين في المدينة مثلنا ، فإنْ صادفوا نصراً ينتصرون ، وإنْ صادفوا هزيمة فروا إلى بلادهم ، ثم يتركون بني قريظة لمحمد ؛ لذلك قرروا ألاَّ يقاتلوا معكم إلاَّ أنْ تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم .

سمع أبو سفيان هذا الكلام ، فذهب إلى قومه فقال لهم : أنتم المقيمون هنا ، وليس هذا موطن بني قريظة ، وسوف يتركونكم لمواجهة محمد وحدكم ، فإنْ أردتم البقاء على عهدهم في محاربة محمد ، فاطلبوا منهم رهائن تضمنوا بها مناصرتهم لكم .

بعدها ذهب أبو سفيان ليكلِّم بني قريظة في هذه المسألة ، فقال : هلك الخفُّ والحافر - يعني : الإبل والخيل - ولسنا بدار مقام لنا ، فهيا بنا نناجز[1] محمداً - هذا بعد أنْ مكثوا نيِّفاً وعشرين يوماً يعدون ويتشاورون - فقالوا له : هذا يوم السبت ، ولن نفسد ديننا من أجل قتال محمد وعلى كل حال نحن لن نشترك معكم في قتال ، إلا أنْ تعطونا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندنا ، ساعتها علم أبو سفيان أن كلام نعيم الأشجعي صدْق ، فجمع قومه وقال لهم :

(١) المناجزة في القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يُقتل أحدهما ، وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا في ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز] .

الأرض ليست أرض مقام لنا ، وقد هلك الخف والحافر ، فهيا بنا ننجو .

قالوا : إن رسول الله ﷺ لما جاء نعيم بن مسعود ، وأخبر رسول الله بما حدث ، ووجد رسول الله الجو هادئاً ، فقال : « ألا رجل منكم يذهب فيُحدِّثنا الآن عنهم ، وهو رفيقي في الجنة ؟ » والمراد : أن يندسَّ بين صفوف الأعداء ليعلم أخبارهم .

ومع هذه البشارة التي بشر بها سيدنا رسول الله مَنْ يؤدي هذه المهمة ، لم يَقُمْ من الحاضرين أحد ، ودَلَّ هذا على أن الهول ساعتها كان شديداً ، والخطر كان عظيماً ، وكان القوم في حال من الجهد والجوع والخوف ، جعلهم يتخاذلون عن القيام ، فلم يأنس أحد منهم قوة في نفسه يؤدي بها هذه المهمة .

لذلك كلَّف رسول الله رجلاً يُدْعى حذيفة بن اليمان بهذه المهمة قال حذيفة : ولكن رسول الله قال لي : لا تُحدث أمراً حتى ترجع إليَّ ، فلما ذهبتُ وتسللتُ ليلاً جلستُ بين القومَ ، فجاء أبو سفيان بالنبأ من بني قريظة ، يريد أنْ يرحل بمَنْ معه ، فقال : ليتعرَّف كل واحد منكم على جليسه ، مخافة أن يكون بين القوم غريب .

وهنا تظهر لباقة حذيفة وحُسْن تصرفه - قال : فأسرعتُ وقلت لمَنْ على يميني : مَنْ أنت ؟ قال : معاوية بن أبي سفيان ، وقلت لمَنْ على يساري : مَنْ أنت ؟ قال : عمرو بن العاص[1] ، وسمعت أبا سفيان

---

(١) ذكر البيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٥١) من حديث حذيفة « أن أبا سفيان أحس أنه دخل فيهم من غيرهم ، فقال : يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فضربت بيدي على الذي عن يميني فأخذت بيده ، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده » (أخرجه الحاكم في مستدركه ٣/٣١) وفي رواية أخرى ذكرها ابن كثير في تفسيره (٣/٤٧١) وعزاها لمحمد بن إسحاق « أن أبا سفيان قال : يا معشر قريش لينظر كل امرىء مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان » ولم يذكر أمر معاوية ولا أمر عمرو بن العاص . والله أعلم .

يقول للقوم : هلك الخفُّ والحافر ، وليستْ الأرضُ دارَ مقام فهيا بنا ، وأنا أولكم ، وركب راحلته وهى معقولة[1] من شدة تسرُّعه ، قال حذيفة : فهممتُ أن أقتله ، فأخرجت قوسى ووترتُها ، وجعلت السهم فى كبدها ، لكنى تذكرت قول رسول الله « لا تحدثن شيئاً حتى تأتينى » فلم أشأْ أن أقتله ، فلما ذهبت إلى رسول الله وجدته يصلى ، فلما أحسَّ بى فَرج بين رجليه ـ وكان الجو شديد البرودة ـ فدخلتُ بين رجليه فنثر علىَّ مُرْطه ليدفئنى ، فلما سلم قال لى : ما خطبك فقصصت عليه قصتى[2] .

وبعد أنْ جند الحق سبحانه كلاً من نعيم الأشجعى وحذيفة لنصرة الحق ، جاءت جنود أخرى لم يروْهَا ، وكانت هذه الليلة باردة ، شديدة الرياح ، وهبَّتْ عاصفة اقتلعتْ خيامهم ، وكفأتْ قدورهم وشرَّدتهم ، ففرَّ مَنْ بقى منهم .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ [الأحزاب]

﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو .. (٣١) ﴾ [المدثر]

بعد أنْ ردَّ الحق سبحانه كفار مكة بغيظهم ، وكفى المؤمنين القتال أراد أنْ يتحوَّل إلى الجبهة الأخرى ، جبهة بنى قريظة ، فلما رجع رسول الله من الأحزاب لقيه جبريل عليه السلام فقال : أوضعتَ لأْمتَك[3] يا محمد ، ولم تضع الملائكة لأمتها للحرب ؟ اذهب فانتصر لنفسك من بنى قريظة ، فقال رسول الله للقوم : « مَنْ كان سامعاً

---

(١) عقل البعير : قيده وربطه . [لسان العرب ـ مادة : عقل] بتصرف .

(٢) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٤٥١/٣) . وانظر تفسير ابن كثير (٤٧١/٣) .

(٣) اللأمة : الدرع . وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقها . [لسان العرب ـ مادة : لأم] .

مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[١] .

فاختلف الصحابة حول هذا الأمر : منهم مَنْ انصاع له حرفياً ، وأسرع إلى بنى قريظة ينوى صلاة العصر بها ، ومنهم مَنْ خاف أنْ يفوته وقت العصر فصلى ثم ذهب ، فلما اجتمعوا عند رسول الله أقرَّ الفريقين ، وصوَّب الرأيين .

وكانت هذه المسألة مرجعاً من مراجع الاجتهاد فى الفكر الإسلامى ، والعصر حَدَثٌ ، والحدث له زمان ، وله مكان ، فبعض الصحابة نظر إلى الزمان فرأى الشمس توشك أنْ تغيب فصلَّى ، وبعضهم نظر إلى المكان فلم يُصلِّ إلا فى بنى قريظة ؛ لذلك أقر رسول الله هذا وهذا[٢] .

وينبغى على المسلم أنْ يحذر تأخير الصلاة عن وقتها ؛ لأن العصر مثلاً وقته حين يصير ظلُّ كل شىء مِثْلَيْه وينتهى بالمغرب ، وهذا لا يعنى أن تُؤخِّر العصر لآخر وقته ، صحيح إنْ صليْتَ آخر الوقت لا شىء عليك ، لكن مَنْ يضمن لك أن تعيش لآخر الوقت .

إذن أنت لا تأثم إنْ صلَّيْت آخر الوقت ، لكن تأثم فى آخر لحظة من حياتك حين يحضرك الموت وأنت لم تُصلِّ ؛ لذلك يقول سيدنا

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن حجر العسقلانى فى شرحه للبخارى (فتح البارى ٧/٤٠٨) من قول ابن إسحاق . وأصل الحديث عند البخارى فى صحيحه (٤١١٩) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : « لا يصلينَّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) كتاب الجهاد - باب المبادرة بالغزو (٢٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . ولفظه أن بعض الصحابة أدركه العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيهم . وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يُرد منا ذلك . فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهما .

رسول الله ﷺ : « خير الأعمال الصلاة لوقتها »[1] فليس معنى امتداد الوقت إباحة أنْ تُؤخَّر .

وفي مسألة الأحزاب بطولة أخرى لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفار فى الخندقة نقطة ضعيفة ، استطاعوا أنْ يجترئوا على المسلمين منها ، وأن يقذفوا منها خيولهم ، فلما قذفوا بخيولهم إلى الناحية الأخرى ، فجالت الخيل في السبخة بين الخندق وجبل سلع ، ووقف واحد من الكفار وهو عمرو بن ود العامرى[2] وهو يومئذ أشجع العرب وأقواها حتى عدُّوه فى المعارك بألف فارس .

وقف عمرو بن ود أمام معسكر المسلمين يقول وهو مُشْهِر سيفه : مَنْ يبارز ؟ فقال على لرسول الله : أبارزه يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « اجلس يا على ، إنه عمرو » فأعاد عمرو : أين جنَّتكم التى وعدتم بها مَنْ قُتِل فى هذا السبيل ؟ أجيبونى .

فقال على : أبارزه يا رسول الله ؟ قال « اجلس يا على ، إنه عمرو » وفى الثالثة قال عمرو :

وَلَقَدْ بُححْتْ مـن النِّداءِ   بجمعكُمْ هَـلْ منْ مُبَـارزْ

---

(١) عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله . حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٨٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان .

(٢) هو : عمرو بن عبد ود ، قرشى من بنى لؤى ، فارس قريش فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، عاش إلى أن كانت وقعة الخندق فحضرها وقد تجاوز الثمانين ، وأصر على المقاتلة ، فقاتله على بن أبى طالب فقتله عام ٥ هجرية . الأعلام للزركلى (٥/ ٨١) .

وَوقفْتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ موْقِـفَ القِـرْنِ المنـاجزْ
إنَّ الشَّجاعَةَ فـى الفَتَـى والجودَ منْ خير الغرائزْ

عندها انتـفض على رضى الله عنه وقـال : أنا له يا رسـول الله ، فأذن له رسول الله ، فأشار على لعمرو ، وقال :

لاَ تَعجَلَنَّ فَقَـدْ أتَـاكَ مجيب صوتكَ غير عَاجِزْ
ذُو نيـة وبَصـيـرة والصِّدْقُ مُنجى كُلَّ فَائزْ
إنِّى لأرْجُـو أنْ أُقـيم علَيْـك نَائحـةَ الجنَـائزْ
مـنْ ضَـرْبة نَجْـلاَء[1] يَبْقَى ذكرُهَا عنْدَ الهزَاهزْ

أى : الحروب[2] .

وكـانت لسيدنا رسول الله درع سـابغة اسـمهـا ذات الفضـول ، فألبسـها رسول الله علياً وأعطاه سـيفه ذا الفقـار وعمامتـه السحاب ، وكانت تسـعة أكـوار ، وخرج على رضى الله عنه لمـبارزة عـمرو بن ود ، فضرب عمرو الدرقة[3] فشقَّها ، فـعاجله على بضربة سيف على عاتقه أردتْهُ قتيلاً ، فقال علىٌّ سـاعة وقع : الله أكبر سمعه رسول الله فقال : « قُتل عدو الله » .

ثم حدثت زوبعة العثْيَر[4] ـ وهو غبار الحرب ـ فحَجبت المعركة ،

(١) طعنة نجـلاء : أى واسـعـة بيِّنة النجَل . وسنان منجـل : واسع الجـرح . ونجله بالرمح : طعنه وأوسع شقه . [لسان العرب ـ مادة : نجل] .
(٢) ذكر هذه الأبيات فى نحو هذا السياق أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٤٣٨/٣ ، ٤٣٩) .
(٣) الدرقة : ترس يُتخذ من الجلود ، ليس فيه خشب ولا عقب . والجمع درق وأدراق . [قاله ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : درق] .
(٤) العثْيَر (بالثاء الساكنة) : الغبار . والعـثيرات : التراب . حكاه سيبويه . [لسان العرب ـ مـادة : عثـر] ولفظ الحـديث عند البيـهـقى فى دلائل النبـوة ٤٣٩/٣ : « وثار العَجـاج » والعجاج : الغبار . وقيل : هو من الغبار ما ثوَّرته الريح .

فذهب سيدنا عمر رضى الله عنه ليرى ما حدث ، فوجد علياً يمسح سيفه فى درع عمرو بن ود ، فقال : الله أكبر ، فقال رسول الله : « قُتل وأيْم الله » .

ومن الأخلاق الكريمة التى سجَّلها سيدنا على فى هذه الحادثة أنه بعد أنْ قتل عَمْراً سأله رسول الله ﷺ : « ألاَ سلبْتَ درْعه ، فإنه أفخر درع فى العرب » ؟ فقال على : والله لقد بانتْ سوأته ، فاستحييت أنْ أصنع ذلك[1] .

ثم أنشد رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه ، وهو يشير إلى عمرو[2] :

نَصَرَ الحجَارةَ[3] من سَفَاهَة رأْيه ... ونَصَرْتُ ربَّ مُحمد بصَوابى
فَصَدَدْتُ حِينَ تركْتُه مُتجدِّلاً ... كالجِذْعِ بين دكَادكٍ[4] ورَوَابى
وعَفَفْتُ عن أثْوَابه ولَو أنّنى ... كنتُ المُقَنْطَر بَزَّنى أثْوابى[5]

---

(١) السائل لعلى هو عمر بن الخطاب فيما أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣٩) أن عمر قال له : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها . فقال : « ضربته فاتقانى بسواده (أى : بإسته) ، فاستحييت ابنَ عمى أن أستلبه » . فالله أعلم .

(٢) ذكر ابن هشام هذه الأبيات فى « السيرة النبوية » (٣/٢٢٥) وعزاها لابن إسحاق ، ثم قال : وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلى بن أبى طالب .

(٣) الحجارة (هنا) : هى الأنصاب والأصنام التى كانوا يعبدونها ويذبحون لها .
وقد ذكر البيهقى هذا البيت بلفظ آخر :
عَبَدَ الحجَارةَ من سَفَاهة عقْله ... وعَبَدْتُ ربَّ مُحمد بصَواب

(٤) متجدلاً : لاصقاً بالأرض . والجذع : فرع النخلة . والدكادك : هو الرمل اللين . والروابى : جمع رابية ، وهى الكدية المرتفعة .

(٥) القطر : الناحية والجانب . وطعنه فقطَّره أى : ألقاه على قطره أى جانبه . [لسان العرب مادة : قطر] والبزُّ : السلب ، وبز الشىء : انتزعه . [لسان العرب ـ مادة : بزز] .

وفى هذه الواقـعة قـال سيـدنا رسـول الله ﷺ : « لو لم يكن لك يا على غيرها فى الإسلام لَكَفَتْكَ » .

لذلك قال العارفـون بالله كأن علياً رضى الله عنه حُسِـد حين قتل عمرو بن ود ، فأصابته العين فى ذاته ، فقُتل بسيف ابن ملجم ، ومن هنا قالوا : أعزّ ضربة فى الإسلام ضـربة علىٍّ لعمرو بن ود ، وأشأم ضربة فى الإسلام ضربة ابن ملجم لعلى .

وفى المعركة بطولة أخرى لسـيدنا سعد بن معاذ[1] رضى الله عنه حيث يقول : ضربنى يوم الأحزاب حِبَّان بن قيس بن العَرِقة ، وقال : خُـذْها وأنا ابن العَرِقـة[2] ـ فـقلت : عرَّقَ الله وجـهك فى النار ، فلمـا أصابنى فى أكـحلى ـ والأكحل هو : العـرْق الذى نضع فيـه الحقنة ، ومنه يخرج دم الفَصْد والحجامة .

فقلت : اللهم إنْ كانت هذه آخر موقعة بيننا وبين قريش فاجعلنى شهيداً ، وإنْ كنتَ تعلم أنهم يعودون فأبقنى لأشفى نفسى ممَّنْ أخرج رسول الله وآذاه ، ولا تُمِتْنى حتى أشفى غليلى من بنى قريظة[3] .

---

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان الأوسي الأنصارى ، صحابى من الأبطال ، من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، شهد بدراً وأحداً ، رُمى بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه عام ٥ هـ ، وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً (الأعلام للزركلى ٣/٨٨) .

(٢) العرقة : هى قلابة بنت سعد بن سهم ، وتكنى أم فاطمة ، وسميت العَرِقة لطيب ريحها ، وهى جدة خديجة ، أم أمها هالة (راجع الروض الأنف للسهيلى) .

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٢٢٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٤١) . وفيه إضافة : « اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وقد كان ، فبعد أنْ مكث الأحزاب وبنو قريظة قرابة خمسة وعشرين يوماً دون قتال ، وانتهى الأمر بالمفاوضات اختار سيدنا رسول الله سعد بن معاذ ليكون حكَماً في هذه المسألة ، فحكم سعد بقتل المقاتلين منهم ، وأسر الذراري والنساء والأموال ، فلما بلغ هذا الحكم رسول الله ﷺ قال : « لقد حكمتَ فيهم حكم ربك من فوق سبع سموات »[١] .

ثم ثار الجرح على سيدنا سعد حتى مات به ، فحملوه إلى خيمة رسول الله بالمسجد ، فجاءت الملائكة تقول لرسول الله : مَنْ هذا الذي مات ، وقد اهتزَّ له عرش الرحمن ؟ قال : « إنه سعد بن معاذ »[٢] .

وقد قال تعالى : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الاحزاب]

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب] بشارة للمسلمين بأن البلاد ستُفتح لهم دون قتال ، وهذا حال جمهرة البلاد

---

(١) عن أبي سعيد الخدري أن أناساً نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل إليه فجاء على حمار ، فلما بلغ قريباً من المسجد قال النبي ﷺ : « قوموا إلى خيركم - أو سيدكم - فقال يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك . قال : فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذراريهم ، فقال ﷺ : « حكمت بحكم الله ، أو بحكم الملك » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٠٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٠٧/٣) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك أن سعدا عاش بعدما أصابه سهم نحواً من شهر حتى حكم في بني قريظة بأمر رسول الله ورجع إلى مدينة رسول الله ، ثم انفجر كَلْمه (جُرْحه) فمات ليلا فأتى جبريل رسول الله فقال له : من هذا الذي فُتحت له أبواب السماء ، واهتز له عرش الرحمن فخرج النبي ﷺ إلى سعد ، فوجده قد مات . فقال ابن حجر في الفتح (١٢٤/٧) : « المراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه » .

التى دخلها الإسلام ، فغالبية هذه البلاد فُتِحَتْ بالأُسْوة السلوكية للمسلمين آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نردَّ على مَنْ يقول : إن الإسلام انتشر بحدِّ السيف .

وإذا كان الإسلام انتشر بحَدِّ السيف ، فأىُّ سيف حمل المسلمين الأوائل على الإسلام وكانوا من ضعاف القوم لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم ؟ إذن : لا شىء إلا قدوة السلوك التى حملت كل هؤلاء على الإيمان .

وسبق أن ذكرنا أن عمر ـ رضى الله عنه ـ وما أدراك ما عمر قوة وصلابةً يقول حين سمع قول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

قال : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ مما يراه من ضعف المسلمين وبطش الكافرين[1] .

ثم لو انتشر الإسلام بالسيف لأصبح سكان البلاد التى دخلها الإسلام كلهم مسلمين ، ولَمَا كانت للجزية وجود فى الفقه الإسلامى ، إذن : بقاء الجزية على مَنْ لم يؤمن دليل على بطلان هذه المقولة ، ودليل على عدم الإكراه فى الدين ، فالفتح الإسلامى كفل حرية العقيدة ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] وعليه الجزية لبيت مال المسلمين مقابل ما تقدمه الدولة إليه من خدمات .

فالجزية التى تتخذونها سُبَّة فى الإسلام دليل على أن الإسلام

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، فعرفت يومئذ تأويلها » .

أقرَّكم على دينكم ، إنما حَمْل السيف كان فقط لحماية الاختيار في الدعوة ، فأنا سأعرض الإسلام على الناس ، ومن حقى أنْ أقاتل مَنْ يعارضنى بالسلاح ، من حقى أن أعرض الإسلام كمبدأ ، فمَنْ آمن به فعلى العين والرأس ، ومَنْ لم يؤمن فليَبْقَ في ذمتنا .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى بيوت أزواج النبى ﷺ ، فيقول سبحانه[1] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

لسائل أنْ يسأل : ما سِرُّ هذه النقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بنى قريظة إلى هذا التوجيه لزوجاته ﷺ ؟

قالوا : لأن مسألة الأحزاب انتهتْ بقوله تعالى : ﴿ وأوْرثَكُمْ أرْضَهُمْ وديارَهم وأمْوالَهُمْ وأرْضًا لَّمْ تَطَئُوها .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب] فربما طلبتْ زوجات الرسول أنْ يُمتِّعهن وينفق عليهن ، مما يفتح الله عليه من خيرات هذه البلاد ، فجاءتْ هذه الآية : ﴿ يَـٰأيُّها النَّبيُّ قُل لأزْواجك .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لتقرر أن الإسلام ما جاء ليحقق مزيَّة لرسول الله ، ولا لآل رسول الله ، حتى الزكاة لا تصح لأحد من فقراء بنى هاشم .

لكن مجيء الآية هكذا بصيغة الأمر : ﴿ يَـٰأيُّها النَّبيُّ قُل لأزْواجك إن كُنتُنَّ تُرِدْن .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] دليل على حدوث شيء منهن يدلّ على تطلعهن إلى زينة الحياة ومُتَعها . وقد رُوى عن عمر - رضى الله عنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٤٢٢/٧) : « قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى ﷺ ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئاً من عرض الدنيا . وقيل : زيادة فى النفقة . وقيل : آذينه بغيرة بعضهن على بعض » .

أنهن اجتمعْنَ يسألْنَ رسول الله النفقة ، وأنْ يُوسِّع عليهن بعد أنْ قال ﷺ عن الكفار : لن يغزونا ، بل نغزوهم[1] وبعد أنْ بشَّرتهم الآيات بما سيُفتح من أرض جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) ﴾ [الأحزاب] يعنى : ليس عندى ما تتطلَّعْن إليه من زينة الدنيا وزخرفها ، ومعنى ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] نقول : تعاليْن يعنى : أقبلْنَ ، لكنها هنا بمعنى ارتفعْنَ من العلو ، ارتفعْنَ عن مناهج البشر والأرض ، وارتقينَ إلى مناهج خالق البشر ، وخالق الأرض ؛ لأن السيادة في منهج الله ، لا فى مُتَع الحياة وزخرفها .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فتعالوْا أى : ارتفعوا عن قوانين البشر وقوانين الأرض إلى قوانين السماء ؛ لأنه يُشترط فيمَنْ يضع القانون ألاَّ يفيد من هذا القانون ، وأن يكون مُلماً بكل الجزئيات التى يتعرض لها القانون والبشر مهما بلغتْ قدرتهم ، فإنهم يعلمون شيئاً ويجهلون آخر ؛ لذلك لا ينبغى أنْ يُقنِّن لهم إلا خالقهم عز وجل .

ومعنى ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أى : أعطيكُنَّ المتعة الشرعية التى تُفْرض للزوجة عند مفارقة زوجها ، والتى قال الله فيها[2] :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٢/٤) من حديث سليمان بن صُرَد رضى الله عنه ، وفى الرواية الثانية عند البخارى « نحن نسير إليهم » . قال ابن حجر فى الفتح (٤٠٥/٧) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها ، فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال ﷺ » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢٩٧/١) : « قد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولاً بها ، وهو قول عن الشافعى رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير » .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] التسريح هنا يعني الطلاق ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) ﴾ [الأحزاب] ذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمتْ إنما تتم بالجمال أي : اللطف والرقة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف ؛ لأن التسريح في ذاته مفارقة مؤلمة ، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق ، وشدة العنف والقسوة .

ولك أنْ تلحظ أن لفظ الجمال يأتي في القرآن مع الأمور الصعبة التي تحتاج شدة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] والصبر يكون جميلاً حين لا يصاحبه ضَجَر ، أو شكوى ، أو خروج عن حَدِّ الاعتدال .

ورسول الله ﷺ يعرض على زوجاته التسريح الجميل الذي لا مشاحنةَ فيه ولا خصومةَ إنْ اخترْنَهُ بأنفسهن ، وما كان رسول الله ليمسك زوجة اختارتْ عليه أمراً آخر مهما كان .

وللعلماء كلام طويل في هذه المسألة : هل يقع الطلاق بهذا التخيير ؟ قالوا : التخيير لَوْنٌ من حب المفارقة الذي يعطي للمرأة - كما نقول مثلاً : العصمة في يدها - فهي إذن تختار لنفسها ، فإنْ قَبِلت الخيار الأول وقع الطلاق ، وإنِ اختارت الآخر فَبِها ونعمتْ ، وانتهتْ المسألة[1] .

---

(١) قال الشافعي : التخيير كناية ، فإذا خيَّر الزوج امرأته وأراد بذلك تخييرها بين أن تطلق منه وبين أن تستمر في عصمته فاختارت نفسها وأرادت بذلك الطلاق طُلِّقت ، فلو قالت : لم أُرد باختيار نفسي الطلاق ، صدقت . وقال القرطبي في المفهم فقال في الحديث : إن المخيَّرة إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقاً من غير احتياج إلى نطق بلفظ يدل على الطلاق . أما الحافظ ابن حجر العسقلاني فقال : لكن الظاهر من الآية أن ذلك بمجرده لا يكون طلاقاً ، بل لابد من إنشاء الزوج الطلاق لأن فيها ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أي : بعد الاختيار . [نيل الأوطار للشوكاني ٦/٢٤٢] .

وأَمْرُ الله لرسوله أن يقول لزوجاته هذا الكلام لا بُدَّ أنْ يكون له رصيد من خواطر خطرتْ على زوجاته ﷺ لَمَّا رأيْنَ الإسلام تُفْتح له البلاد ، وتُجبى إليه الخيرات ، فتطلَّعْن إلى شيء من النفقة .

وكلمة الأزواج : جمع زوج ، وتُقال للرجل وللمرأة ، والزوج لا يعني اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعني الفرد الذي معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة التوأم ، فهي تعني (واحد) لكن معه مثله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ.. (٤٩)﴾ [الذاريات] يعني : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى وحدها زوج ، وهذه القسمة موجودة في كل المخلوقات . وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ في الأسلوب هنا أن الحق سبحانه حين يعرض على رسوله أنْ يُخيِّر زوجاته بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة يستخدم (إنْ) الدالة على الشكّ ، ولا يستخدم مثلاً (إذَا) الدالة على التحقيق ، وفي هذا إشارة إلى عدم المبالغة في اتهامهن ، فالأمر لا يعدو أنْ يكون خواطر جالتْ في أذهان بعض زوجاته .

وتعلمون أن سيدنا رسول الله جمع من النساء تسعاً معاً ، منهن خمسٌ من قريش ، وهُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة ابنة أبي أمية . ومن غير قريش : صفية بنت حيي بن أخطب الذي ذكرنا قصته في الأحزاب ، ثم جويرية بنت الحارث من بني المصطلق ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية - ومَنْ ذهب عند التنعيم وجد هناك بئر ميمونة ، ثم زينب بنت جحش من بني أسد ، هؤلاء هُنَّ أمهات المؤمنين التسعة اللاتي جمعهنَّ رسولُ الله معاً .